الباب الأول

تاريـخ الحـــركة التعاونيـــة

- ظهور المؤسسة التعاونية كنزعة للمقاومة .
- الاقتصاد المغلق .
- الاقتصاد التجارى ومشكلة العمل .
- بزوغ الجمعيات التعاونية الأولى .
- نشأة وتقدم المؤسسة التعاونية .
- سير الأفكار .
- الهياج السياسى .
- سير التنظيم .
- نشأة التعاون وتطوره :
  * فى إنجلترا .
  * فى ألمانيا .
  * فى فرنسا .
- مولد التعاون فى ظروف خاصة .
- الدور الذى يؤديه التشريع .

obeikandi.com

الباب الأول

تاريـخ الحـــركة التعاونيـــة

- التعاون فى أوسع معانيه هو اتحاد موارد كل فرد وقدرته مع موارد وقدرة آخرين وتنسيقها بحيث تكون مجهوداً واحداً مشتركاً بغية الوصول إلى نتائج يسعى إليها مجموعهم . وهو نوع من السلوك الإنسانى شوهد فى العصور البشرية كافة حتى فى أقدمها عهداً ، وقد اتخذ هذا السلوك فى أكثر الشعوب بداءة فى بعض الأوقات ثوبا من الدين ، كان فى نفسه ناتجا عن الحياة الاجتماعية ، ثم أستبقته بعد ذلك العادة ، وسلطة الزعماء التقليدية ، وفى كلتا الحالتين كان تعبيراً عن التكتل الغريزى للمجموعة .

- وأن عادة تبادل المساعدة نفسها ، وهى التى ربتها حاجة كل فرد إلى المجموع لتلبى فى الأوقات الحديثة فى أشكال أخرى كما تلبى فى أشكالها التقليدية ، وهى تتخذ فى دوائر العمال شكل عمل نقابى فيه يكد الفرد كى يحسن أحوال العمل والحياة ، لا من أجل نفسه فحسب ، بل ومن أجل المجموع أيضاً . فالمساعدة تعطى لرفيق له أصيب ، أو زميل له فى العمل يكون فى خطر ، أو لأسرة أصابها المرض أو الثكل أو الفقد ، ومما هو جدير بالذكر أن العمل النقابى نفسه بدأ فى بلاد كثيرة فى صورة جمعيات لتبادل المعونة .

- وفى جميع البقاع الريفية بالعالم وبين صغار المزارعين كثيراً ما يكون رعى القطعان التى يملكها الأفراد بالتناوب بين الرعاة كل فى دوره ، وكثيراً ما يجمع محصول كل فرد ويدرس بواسطة الجيران مجتمعين يعاون كل منهم الآخر بطريقة ولو أنها اختيارية إلا أنها أصبحت بحكم التقليد إجبارية ، وتستعمل الطريقة نفسها فى بعض البلاد لحفر الآبار وبناء خزانات المياه ومجاريها ولإقامة المساكن . فهل يعنى هذا أن تلك العادات أو السنن ظلت دائماً أو أنها قد تظل دائماً تؤدى مباشرة إلى نشوء التعاون فى شكله الحديث ؟

- هناك حالات قد يشاهد فيها هذا الاتجاه ومثل ذلك أن المعامل التعاونية لصنع الجبن فى منطقة جبال جورا بفرنسا نشأت فى الأصل عن «بساتين الفاكهة» ، وقد سجل وجود هذه البساتين منذ القرن الثالث عشر ، ولا تزال هذه المعامل تحمل هذا الاسم . وكذلك فى يوغوسلافيا يستعمل لفظ «زاد روجا » للدلالة على الجمعيات التعاونية وهو يطلق أيضاً على «الأسرة الكبيرة» فى بلاد الصرب، و «الزادروجا» هى مجموعة يتساوى فيها الجميع ، تملك أرضا غير مقسمة تزرعها بطريقة المشاع ، وتنتخب لنفسها قائداً من بين أهلها ، ويرجع تاريخها إلى ما قبل التاريخ .

- وقد يحـدث أيضاً أن تظل بعض عادات أو سنن تقليدية مترعرعة إلى درجة كافية ، وأن تظل تلعب دوراً من الأهمية بحيث تكون أساساً لإنشاء جماعات تعاونية حديثة ، وهذا ما حاولت حكومة بيرو عمله بالانتفاع بالجمعيات المحلية القديمة المتأصلة التى يطلق عليها اسم « آيلوس » . وكانت هذه أيضاً طريقة إصلاح نظام ملكية الأراضى فى بلاد المكسيك عقب ثورة ١٩١٠ م ، عندما أعيد تنظيم ما كان يسمى قديماً « أجيدوس » .
- وأن صفة البقاء التى تتصف بها العادات والسنن ، وبعضها عمره قرون لهى درس عام يمكن تعلمه ، كما أنها تلقى ضوءاً على غريزة المساعدة المتبادلة وتقليدها ، وعلى العمل المشترك ، والملكية المشتركة ، والإدارة المشتركة التى تختمر فى رءوس الناس وحياتهم فى كل العصور والبلدان ، وسوف تعاون هذه الغريزة وهذا التقليد على شرح قواعد التعاون وعاداته ، وأن أصل الحركة التعاونية الحديثة والقوى الدافعة التى وراءها هى حقا ذات طابع شعبى .
- والقواعـد التى تتحكم فى هذه السنن التقليدية بسيطة تارة، ومركبة تارة أخرى، وقلما يمكن اختزالها فى صيغة تعاقدية بل هى تتفق بالطبيعة مع السلوك العادى للأفراد . وهى صور حية أى أنها سوف تثبت قدرتها على تهيئة نفسها لظروف جديدة ، وعلى أن تنمو جنبا إلى جنب مع الفئة الاجتماعية التى أنتجتها . فهى ولو أنها فى الأصل تطابق نظاماً بدائياً طبيعياً إلا أنها تعبر فيما بعد عما للتقاليد من إجبار فقط ، وهى فى المرحلة الأخيرة نتيجة الاتفاق الاختيارى للرغبات الفردية .

ظهـور المؤسسـة التعـاونية الحديثة كنزعة للمقاومة :

توجد جذور المؤسسة التعاونية الحديثة بين عادات الناس شأنها فى ذلك شأن السنن التقليدية للمجتمع المحلى ، وقد كانت فى الماضى ولا تزال وسيلة للدفاع والتحسين والتحرر ولمكافحة الأحوال التى نتجت عن تطور النظام الاقتصادى التجارى أو نظام الأخذ والعطاء .

الاقتصاد المغلق :

فى الاقتصاد المغلق (كالذى لا يزال موجوداً فى الجهات البعيدة عن طرق المواصلات) أى فى المجتمع البشرى المحلى الذى ينتج كل ما يستهلكه ويستهلك كل ما ينتجه ، لم تنشأ مشكلات العمل بمعناها الحديث فليس فى هذه النظم الاقتصادية مشكلة أجـور ، وليس أسبوع العمل موضع خلاف لأنه مفروض بالضرورة ، والظروف وساعات العمل ليست فى حاجة إلى تنظيم ، والناس ينتجون عندما يمكنهم ذلك أو عندما يضطرون أو يريدون . والبطالة غير معروفة والناس ينتجون تلبية لحاجات المجموع بقدر الإمكان ، والأخطار المختلفة كالإصابة بالحوادث

obeikandl.com

والمرض والشيخوخة وغيرها مما يطلق عليه فى مجموعه «الضمان الاجتماعى» يتولاها ما بين أفراد المجتمع المحلى من زمالة ساذجة طبيعية متينة .

مولد الاقتصاد التجارى ومشكلة العمل :

ولكن عندما يأخذ المحيط الاقتصادى فى الاتساع بالتدريج ، وعندما ينتج الناس سلعا للبيع ، وعندما يضطرون إلى البيع كى يشتروا ، وعندما يضطرون للشراء قبل أن يبيعوا (أو بعبارة أخرى يقترضون) ، فإن التاجر والمرابى (وهما فى معظم الأوقات شخص واحد) يحلان حينئذ بين المنتج والسوق فينفصل المنتج شيئًا فشيئًا عن معدات عمله ، وعن نتاج عمله ، وعن طريق تصريف هذا النتاج ، وعندما تتم العملية ، ويقف بينه وبين السوق شخص آخر أو سلسلة من الأشخاص أو فى النهاية مجموعة من الناس تتولد المشكلة الحديثة (مشكلة الطبقات) لأن الشخص أو الأشخاص الذين يسيطرون على وسائل الإنتاج ، وطرق الوصول إلى السوق يحتلون موقعا استراتيجيا منيعا هو فى الوقت نفسه باب تجبى عنه الضرائب ، وحول ذلك الموقع الاستراتيجى ، وذلك الباب الذى تجبى عنده الضرائب وكل منهما موقع لسيطرة اجتماعية ممكنة ولاستقلال اقتصادى ميسور قام الصراع بين الطبقات ، وهو الصراع الذى لا يزال مشتعلا بينها ولو بطريقة جزئية أو مستترة .

بزوغ الجمعيات التعاونية الأولى :

- كانت الجمعيات التعاونية الأولى عملا انعكاسيا دفاعيا وسعيا للاستيلاء على هذه المواقع الاستراتيجية ، وعلى هذا الباب الذى تجبى عنده الضرائب ومما له مغزاه أن معظمها أنشئ بين عمال النسيج أو بعبارة أخرى بين المشتغلين بالصناعات الريفية، وقد كانوا أول وأشد من أصيبوا من جراء تقدم الاقتصاد التجارى والانقلاب الصناعى بخسارة جسيمة ، وعلى ذلك فإن النساجين الذين أرادوا أن يصلوا من جديد إلى السوق التى بها أدوات حرفتهم أو التى بها أغذيتهم كانوا أول من أنشأ الجمعيات التعاونية بأسكتلنده (فنويك سنة ١٧٦١م) وبجوفان سنة ١٧٧٧ م ، وبدارفيل سنة ١٨٤٠ م ، وبفرنسا (ليون سنة ١٨٣٥ م) ، وبإنجلترا (روتشديل سنة ١٨٨٤ م) ، وبألمانيا (كمنتز سنة ١٨٤٥ م) .
- ومما له مغزاه أيضاً أن من أنشأوا «العوالم المثالية الكمالية» فى بحثهم عن حل لمشكلة الطبقات فى ذلك الوقت كانوا هم الذين حلموا بإنشاء «مواطن جديدة قائمة بذاتها» تلبى حاجاتها بنفسها أى باستعادة تلك الجنة المفقودة «جنة الاقتصاد المغلق» ، ومما هو أجدر من هذا بالاعتبار أن رواد روتشديل الذين عرفوا بصلابة رءوسهم رأوا لزاما عليهم أن يجعلوا هدف جماعتهم التعاونية فى أول

الأمر إنشاء مواطن جديدة من هذا النوع ، أو المعاونة فى إنشائها ويكون أعضاؤها لا تجارا يعملون لحسابهم فحسب ، بل ومنتجين لأنفسهم وأصحاب عملهم أيضاً .

- إن العصر الذى تكونت فيه الجمعيات التعاونية الأولى، والبيئة التى بزغت فيها ، وأهدافها العاجلة ، والآجلة ، وأخيراً حنينها إلى الاقتصاد المغلق كل هذه تلقى ضوءاً على الحاجة التى أوجدتها فهى كمشكلة الطبقات الحديثة قد أوجدها الاقتصاد التجارى فى وقت قلب فيه هذا الاقتصاد التوازن الاجتماعى والاقتصادى للمجتمعات المحلية الأهلية رأساً على عقب ، وألقى على عاتق عامة الناس ضغطا كان من شأن الانقلاب الصناعى أن جعله لا يطاق .

كيف نشأت المؤسسات التعاونية وكيف تقدمت ؟

- يجب ألا يؤخذ القول بأن الجمعيات التعاونية نشأت فى الأصل بين الناس العاديين على أنه يعنى أن الحركة التعاونية نمت فى فراغ بعيدة عن أى تفكير أو مؤثرات خارجية . حقا لقد كانت هنا وهناك أثناء الثلث الأخير من القرن الثامن عشر جمعيات تعاونية نشأت من تلقاء نفسها ، دون أن تهتم بمسائل فكرية بل كانت مجرد سعى من قبل أسر الطبقات العاملة لاستعادة وظائف اقتصادية حرمت منها ، واسترداد جزء على الأقل من استقلالها المفقود .

- ومع ذلك فمنذ الربع الثانى من القرن التاسع عشر امتزجت واقعية مؤسسى الجمعيات التعاونية بأمانى عامة تهدف إلى تحسين المجتمع . وقد تسبب هذا عن الأجور المنخفضة ، وعن ارتفاع تكاليف الحياة ، وعن غش المواد الغذائية ، وعن البطالة وطول يوم العمل (حتى فى حالة النساء والأطفال) وبالإجمال لم يؤد الكرب المتزايد الذى تعانيه الطبقات العاملة إلى حدوث الاضطرابات فحسب ، بل أدى إلى تفكير وقلق من قبل أصحاب الفكر والناس الخيرين ، وقد رأى ذوو الفكر الحر وبعيدو النظر وأصحاب الخيال أن واجبهم إما أن يبحثوا عن إجابات عملية للمسائل الجديدة أو أن ينشئوا أجهزة طموحة للتنظيم الاجتماعى .

سير الأفكار :

١ – وفى **إنجلترا** تخيل «**روبرت أون**» (١٧٧١ – ١٨٥٨ م) ، وأنشأ مجتمعات محلية شبه زراعية وشبه صناعية ، وعمل «الدكتور/ **وليام كنج**» (١٧٨٦ – ١٨٦٥م) على نشر عقيدة أون ، وكانت آراؤه معقولة أكثر من آراء أون ، كما أن النتائج التى وصل إليها كانت عملية أكثر .

٢ – وفى **فرنسا** نشر «**شارل فوريه**» (١٧٧٢ – ١٨٣٧ م) وهو كاتب فى محل

تجارى مؤلفه الرئيسى المسمى « بحث فى الجماعة الزراعية الأهلية » وفيه يصف «فوريه» بتفصيل كبير نظاما معقدا لمجتمع محلى أطلق عليه اسم (فالانسترى) ، وقد أظهر «**فوريه**» زيادة على ذلك أنه ناقد مستنير للنظام الاجتماعى وللتجارة والمضاربة ، وهو يعارض التخصص فى العمل بنظريته عن «العمل الجذاب» ، وفى البلد نفسها تقدمت فكرة «الترابط» واتخذت أشكالاً مختلفة على يد «**سان سيمون**» (١٧٦٠ – ١٨٢٥م) وعلى أيدى تلاميذه (**أنفتان**) ، (**ب. ليرو**) ، (**بازار**) ، (**لوى بلان**) وغيرهم . وكذلك على يد «**برودهن**» (١٨٠٩ – ١٨٩٥ م) ، وهو الذى كان يأمل عن طريق «تبادل المعونة» و (الائتمان المجانى) أن يصل ثانية إلى سوق المال ، وكذلك على يد «**بوشيه**» (١٨٩٦ – ١٩٥٨ م) الذى انفصل عن « سان سيمون » وناصر فكرة (رأس المال الجماعى) الذى لا يتنازل عنه ، و « جمعيات العمال التعاونية الإنتاجية » . ولا تكون قائمة أسماء العظماء كاملة إذا لم يذكر اسم (**شارل جيد**) (١٨٤٧ – ١٩٣٢ م) ، وأسم (**جورج فوكيه**) (١٨٧٣ – ١٩٥٣ م) من رجال هذا العصر فى فرنسا .

٣ – وفى **ألمانيا** عمل «**فكتور أيمى هوبر**» (١٨٠٠ – ١٨٦٩ م) وهو رجل كثير الأسفار درس مبادئ الحركة التعاونية فى بريطانيا وفرنسا وبلجيكا ، واعتقد وعلم الناس فى رسائله من سنة ١٨٥١ م فصاعداً أن النشاط التعاونى يتناول مشكلة أوسع منه وهى (مشكلة الطبقات) ، وكذلك نادى (**شولتز ديليستش**) (١٨٠٨ – ١٨٨٣م) بنفسه رسولا للتعاون بقصد التسليف فى المدن . وللتعاون فى الحرف اليدوية – بينما قام (**ف. ريفيزن**) بالعمل نفسه من أجل التعاون بقصد التسليف فى الريف .

٤ – وفى **إيطاليا** ترسم «**لويجى لوزاتى**» (١٨٤١ – ١٩٢٧ م) ، و «**ولنبرج**» (١٨٨٣ م) فيما بعد خطا «ديليستش» ، و «ريفيزن» .

الهياج السياسى :

ولقد كان عصر هذا التفكير العميق فى «مشكلة الطبقات» هو أيضاً عصر الصراع السياسى المتأجج من أجل الاعتراف بحقوق الناس العاديين فى المجتمع، وللفوز بالتصويت العام . قامت فى إنجلترا الحركة المعروفة بأسم (الحركة الميثاقية) «الشارتيزم» ونشبت الثورات فى بلاد ويلز ، وفى أوروبا قامت المشاغبات وإندلعت ثورتا ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ م . وفى هذا العصر أيضاً اتخذت مذاهب اجتماعية جديدة شكلها (كمذهب المسيحية الاشتراكية ببريطانيا) والنظريات الاشتراكية الأولى (كاشتراكية العوالم المثالية بفرنسا) وانبثقت على المسرح السياسى .

ومنذ ذلك العصر وفى ذلك الجو ، جو ثورة الأفكار والهياج الشعبى ، ظلت حركة التعاون تسير إلى الأمام قدما .

سير التنظيم :

- وقد اتخذت سنة تبادل المساعدة بين الناس وميلهم الغريزى إلى التجمع فى بعض نواحيها على الأقل ، شكل مذهب هو «مذهب الترابط» فنظم العمال أنفسهم فى «جمعيات أخوية» أو «جمعيات تبادلية» ثم فى هيئات «للمقاومة» وأخيراً فى نقابات.
- وفى الوقت نفسه أسست أو وضعت مشروعات جمعيات تعاونية استهلاكية ، وبالأخص المخابز التعاونية مثل «المخبز التبادلى» بجنيف (١٨٣٧م) «والمخبز المؤتمن» بباريس ١٨٣٩ م وبدأت تظهر قلة من جمعيات العمال التعاونية للإنتاج (باريس ١٨٣١ – ١٨٣٢ م) .
- وقد عبرت هذه الجمعيات التعاونية عن أمانيها من الناحية الفكرية باعتناقها مذاهب جديدة ، ومن الناحية العملية بإثارة الهياج المباشر ، وباندفاعها نحو التنظيم .
- وكذلك تجلى هذا المزيج من النقابية التلقائية ومن «نظرية فوريه» ومن «اليعقوبية» [من مقدمة كتبها «البرت توماس» لمؤلف «لجين جومونت» اسمه «التاريخ العام للتعاون بفرنسا» فى باريس ١٩٢٤ م ومن المعروف أن اليعقوبية هى مذهب اليعاقبة] فى تأسيس جمعية تعاونية استهلاكية بمدينة ليون عام ١٨٣٥ م . أطلق عليها اسم ذو مغزى وهو «التجارة المؤتمنة والاشتراكية» ، وكان محركها الرئيسى هو «ميشيل دريون» ، وقد سبق له أن كان من أتباع مذهب «سان سيمون» ثم أصبح من أتباع «فوريه» ، وكان الأعضاء المؤسسون لهذه الجمعية «تبادليين» وكان نظامهم السرى نوعا بدائيا للنقابة ، وإليه ينسب القسط الأكبر فى تنظيم « حركة الاعتصاب العام » التى بلغت ذروتها فى مشاغبات سنة ١٨٣٤ م أى فى السنة السابقة لقيام جمعيتهم .
- ويتمثل هذا التفاعل نفسه بين «المذهبية» من جهة ، وبين التحريض على «العمل المنظم» من جهة أخرى فى قصة «رواد روتشديل» العادلين ؛ إذ كان عدد كبير منهم من أتباع «أون» أو من المتأثرين بآرائه ، واشترك أكثرهم نفوذاً فى الاعتصابات وفى الحركة الميثاقية ، وقد تجلت فلسفتهم المذهبية فى برنامجهم الذى يقول «سوف تعمل هذه الجمعية حالما يتسنى ذلك عمليا على أن تنظم قوى الإنتاج والتوزيع والتعليم والحكم أو بعبارة أخرى على أن تؤسس فى موطنها مستعمرة ذات مصلحة متحدة تعين نفسها بنفسها ، وستقوم الجمعية كذلك بمعاونة الجمعيات الأخرى على إنشاء مثل هذه المستعمرت» ،

وبينما كان هؤلاء يسعون جادين فى الوصول إلى هذا الهدف البعيد مكنهم حسن إدراكهم للأمور من تلبية حاجاتهم العاجلة ، وكان هذا هو ما ضمن لهم النجاح ، وكان لنجاحهم الوزن الكامل الذى تتصف به «تجربة نموذجية كاملة» .

- وكما تبين مما سبق ذكره ، وعلى نقيض الأسطورة ، لم تكن جمعية روتشديل التعاونية الأولى من نوعها . فعندما احتفل بعيد ميلادها المئوى ، كانت هناك ثلاث وعشرون جمعية قد أسست قبلها ، وكانت لا تزال موجودة فى إنجلترا وأسكتلنده ، ولم يبتكر الرواد القواعد التعاونية ولكنهم وهبوها مقاما ونشروها بالطريقة الناجحة التى طبقوها بها ، وهذا هو أسس شهرتهم .

ولم تكن الظروف العاملة التى أحاطت بمولد الجمعيات التعاونية بليون ، و «روتشديل» هى من خواص هذه الجمعيات التعاونية وحدها وهى تساعد إلى حد كبير على تفسير نمو الحركة التعاونية الذى استمر فى البلاد ذات الصناعات حتى قرب نهاية القرن التاسع عشر ، وإلى اليوم يمكن مشاهدة ما هناك من علاقة بين حركة العمال المناضلة وبين حركة التعاون المكافحة . وفى معظم بلاد أوربا الغربية ، وفى إسرائيل ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وجمهوريات أمريكا اللاتينية تجد الحركة التعاونية اليوم سندا لها وحافزا بل وأصلها نفسه فى محيط الجمعيات الأخوية أو النقابات العمالية . أضف إلى ذلك أنه منذ بداية الحركة التعاونية ظل المثل التعاونى الأعلى للتقدم الاجتماعى مرتبطا بطريقة أو بأخرى باعتبارات دينيـة أو خلقية فمـع أن «أون» كان ملحـدا إلا أن « كنج » ، و « بوشـيه » و « هوبر ريفيزن » ، و « لويجى لوزاتى » و « شارل جيد » كانوا رجالا فى غاية التدين ، وفى بحثهم عن التحديد الاجتماعى كانوا يشعرون أنهم يدعون لا إلى نظام اقتصادى جديد فحسب ، بل وإلى إنجيل جديد أيضاً وقد اتخذت الكنيسة فى بعض البلدان هذا التقليد . وفى بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية ، تناصر الكنيسة الحركة التعاونية . وفى كندا وعلى الأخص فى كويبك والولايات المتحدة الأمريكية حيث يرجع الفضل فى نموها إلى رجال الدين الكاثوليك وفى بلجيكا وإيطاليا وهولندا توجد حركات تعاونية ملّية . زد على ذلك أن الحركة التعاونية فى جميع البلاد تعترف بأنها لاترمى إلى إدخال مبادئ جديدة للنظام الاقتصادى فحسب ، بل وإلى خلق وعى جديد للعلاقات الإنسانية وإلى عقيدة إشتراكية جديدة .

نشأة التعاون وتطوره :

يقصد بالتعاون من الناحية اللغوية هو المساعدة المتبادلة ، ومعنى تبادل المساعدة هذه هى حاجة الفرد إلى جهد ومعونة الآخرين ؛ أى الحاجة إلى المعونة المتبادلة فشعار التعاون أن الفرد للجماعة والجماعة للفرد .

- وقد نشأ نظام التعاون فى العالم منذ سنة ١٨٨٤ م وكان السبب الرئيسى لظهور هذا النظام هو الانقلاب الصناعى الذى ظهر فى **إنجلترا** منذ سنة ١٧٧٠ م وهو هذا التحول الكبير الذى طرأ على الصناعة بإحلال الآلات محل العمل اليدوى وظهور طبقة العمال وانتقالهم إلى حيث توجد المصانع ، وظهور طبقة أصحاب رؤوس الأموال والمصانع ، وقد ترتب على هذا التحويل الكبير فى الأوضاع القديمة للعمل نتائج مهمة اقتصادية واجتماعية خطيرة ، فقد ضاقت بالعمال سبل المعيشة وتحكم فيهم أصحاب الأعمال وساءت حالتهم لدرجة كبيرة لانخفاض الأجور وطول ساعات العمل وتشغيل الأطفال وسوء الأحوال الصحية فى المساكن والمصانع .
- وتلى الانقلاب الصناعى فى انجلترا انقلاباً زراعياً فى **ألمانيا** مرت مظاهره فى استعمال المخصبات والأسمدة الكيماوية لزيادة غلة الأرض واختراع الآلات الميكانيكية التى تعمل فى الزراعة مثل الحرث والرى والدارس مما نتج عنه تخفيض فى النفقات وتوفير الأيدى العاملة وظهور الصناعات الزراعية بتحويل المواد الأولية إلى مواد جديدة بوسائل صناعية ، وكان نتيجة لتقدم النقل البرى والبحرى باستعمال البخار أن نظمت وسائل تسويق المحاصيل الزراعية سواء الناتجة فى أوربا أو الواردة من أمريكا . وقد نجم عن كل ذلك سوء حالة المزارعين وعلى الأخص صغارهم لعجز مواردهم المالية عن ملاحقة هذا التطور فى الزراعة .
- هذه صورة موجزة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التى ظهرت منذ أواخر القرن الثامن عشر ، والتى ترتب عليها ظهور عدد كبير من المفكرين فى كثير من الدول الذين حاولوا بآرائهم وكتاباتهم أن يصلحوا من العيوب والمبادئ الاجتماعية التى ترتبت على هذه الأوضاع الاقتصادية فى النظام الرأسمالى . فمنهم من نادى بالاشتراكية على صورها المختلفة ، ومنهم من نادى بالنظام التعاونى .

وفيما يلى سنتعرض لنشأة الحركة التعاونية فى كل من إنجلترا باعتبارها مهد التعاون الاستهلاكى ، وفى فرنسا باعتبارها مهد التعاون الإنتاجى ، وفى ألمانيا باعتبارها مهد التعاون للاقتراض التعاونى أى الجمعيات التعاونية للتسليف .

١ - نشأة الحركة التعاونية فى إنجلترا :

تهدف الجمعيات التعاونية الاستهلاكية كأصل عام إلى خدمة وحماية جمهور المستهلكين ، وذلك سواء بتقديمها لخدمات عدة لهم بأحسن الشروط أو بتوفيرها للسلع والبضائع المادية لأعضائها أو للغير من المستهلكين بأقل نفقة ممكنة لهم . وتعتبر إنجلترا مهد حركة جمعيات المستهلكين التعاونية – ولقد ابتدأت هذه الحركة

التعاونية عام ١٨٤٤م ، حينما تأسست جمعية «رواد روتشديل» ، تلك الجمعية التى تعتبر مثالاً للجمعيات التعاونية الاستهلاكية (علما بأنه سبقها تكوين جمعيات لم يكتب لها النجاح) – ويرجع فضل تأسيس هذه الجمعية لـ ٢٨ شخصا من بينهم سيدة واحدة يحترفون مهنة نسج القطن ، وكانوا مختلفين فى المبادئ السياسية والمذاهب الدينية .

بدأت هذه الجمعية برأس مال بسيط قدره ٢٨ جنيها إنجليزيا حيث استأجر الأعضاء متجرا صغيرا بعشرة جنيهات افتتح بكمية متواضعة من البضائع ، وبالمثابرة والاقتناع ورسوخ العقيدة التعاونية بين أعضائها ، توسعت الجمعية فى أعمالها فأصبح عدد أعضائها حتى سنة ١٩٦٤ م هو ٦٠٠ عضو ، وبلغت مبيعاتها السنوية حوالى ١٣ ألف جنيه – لذلك اعتبرت هذه الجمعية بحق مثلا للجمعيات الاستهلاكية وحافزا على نشر الحركة التعاونية الاستهلاكية فى إنجلترا .

مبادئ جمعية «روتشديل» :

١ – عدم قصر عضوية الجمعية على عدد معين أو تحديد رأس مالها بمبلغ معين .

٢ – عقد اجتماعات دورية متتالية لبحث شئون الجمعية يحضرها جميع الأعضاء .

٣ – لكل عضو صوت واحد فقط فى الجمعية العمومية بغض النظر عن عدد الأسهم التى يمتلكها .

٤ – لا يجوز لأى عضو أن يمتلك عدداً من الأسهم يزيد ثمنها عن ٢٠ جنيهاً .

٥ – منح فائدة محددة (أى نسبة ضئيلة من الربح على الأسهم لا تزيد عن ٥٪) وتوزع الأرباح الصافية بعد ذلك على الأعضاء بنسبة ما يشتريه كل عضو من الجمعية .

٦ – تخصيص نسبة ٢,٥ ٪ من الأرباح للأغراض الاجتماعية والثقافية .

٧ – تحريم البيع بالأجل حتى لا تتعرض الجمعية لخطر عدم الوفاء .

٨ – بيع السلع بأسعار السوق السائدة حتى لا توغر صدور التجار .

٢ - نشأة الحركة التعاونية فى ألمانيا :

تعتبر ألمانيا مهد الإقراض التعاونى ويرجع الفضل فى ذلك إلى شخص يدعى «فردريك رايفيزن» الذى راعه سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية فى أحد سهول ألمانيا حيث ساءت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للمزارعين هناك حتى وقعوا تبعاً لذلك تحت رحمة المرابين .

قام «رايفيزن» فى أول الأمر بتأسيس جمعية للاستهلاك وكانت ذات إدارة مجانية وقامت الجمعية بالحصول على الحبوب وأنشأت مخبزا قام بتوزيع الخبز على

الفقراء منهم بسعر يعادل نصف السعر الجارى ثم قامت بتوريد البذور لأعضائها فأغنتهم بذلك عن الاقتراض بالحصول على هذه البذور .

ثم أنشأ «رايفيزن» سنة ١٨٤٩ م جمعية مكونة من ستين عضوا يتمتعون ببعض الموارد المالية ، قامت هذه الجمعية بشراء الماشية وتوزيعها على المزارعين وتقسيط ثمنها على آجال طويلة ، وقدمت أيضاً هذه الجمعية القروض النقدية للمزارعين وهكذا عملت الجمعية كصندوق للتسليف ثم صندوق للإدخار .

وكانت مسئولية أعضاء هذه الجمعية مسئولية تضامنية غير محددة أى يدخل فى الضمان كل ما يملك الأعضاء – ثم قام «رايفيزن» بتأليف جمعية أخرى حينما نقل إلى إحدى البلاد الأخرى وكانت جمعية متعددة الأغراض إلا أنه لم يكتب لها النجاح .

وقام «رايفيزن» بعد ذلك بتكوين جمعية سميت بجمعية التسليف ، غرضها التسليف وتقديم القروض كتب لها النجاح واعتبرت هذه الجمعية أساساً لبقية جمعيات التسليف المتخصصة .

وتتلخص مبادئ «رايفيزن» فى وحدة الهدف (التسليف) بجانب الإدارة وقصر التسليف على الأعضاء واستبعاد فكرة العائد وضم الأرباح إلى المال الاحتياطى وعدم قابلية رأس المال للقسمة بين الأعضاء والمسئولية التضامنية للأعضاء وانخفاض قيمة أسهم رأس المال .

٣ - نشأة الحركة التعاونية فى فرنسا :

بدأت جمعيات الإنتاج فى الظهور فى فرنسا منذ أكثر من قرن ، وكان ذلك بفضل تعاليم المفكرين الاجتماعيين هناك حيث قاموا بإرساء القواعد الأولى للتعاون الإنتاجى .

أ) « **شارل فوريه** » : كان أول هؤلاء المفكرين وقد نادى بتكوين منظمات جماعية للمعيشة المشتركة لا تقوم على الإنتاج الجماعى وحده ، وإنما تقوم كذلك على الاستهلاك ، وعلى الحياة الاجتماعية المشتركة بحيث تكون المنظمة بمثابة «قصر اجتماعى» أو «فندق تعاونى» يعيش فيه أفراد المنظمة على نحو عائلى مشترك .

ب) «**لويس بلان**» : خص لويس بلان الإنتاج الصناعى بآرائه وأفكاره التى كانت أساساً لقيام الجمعيات التعاونية للإنتاج . وقد نادى لويس بلان بضرورة تجمع العمال لكى يقوموا بالإنتاج على نحو مشترك فى مصانع أسماها «بالمصانع الجماعية» وذلك على أساس من التضامن واشتراك الجهود ، ونادى أيضاً

بضرورة تقديم الدولة لرأس المال اللازم لا على سبيل المنحة بل على سبيل القرض الذى يلتزم بوفائه العمال عندما يحققون أرباحاً . وقسم «لويس بلان» الأرباح الناتجة إلى **ثلاثة أقسام** :

القسم الأول : يوزع بالتساوى بين أعضاء المصنع الاجتماعى .

القسم الثانى : يخصص لمساعدة العجزة والمرضى من أعضاء المصنع الاجتماعى.

القسم الثالث : للوفاء برأس المال المقترض من الدولة – فإذا ما تم ذلك خصص القسم الثالث من الأرباح للمساهمة فى تأسيس مصانع اجتماعية جديدة .

جـ) **فيليب بوشيه**: نادى بضرورة اعتماد العمال على أنفسهم فى تأسيس الجمعيات التعاونية فى حالة الصناعات البسيطة ، أو الحصول على قروض من بنوك الدولة فى حالة الصناعات التى تحتاج لرأس مال كبير . وقدر «بوشيه» أن جمعيات العمال الإنتاجية يجب أن تقوم على **المبادئ الآتية** :

أ) يختار العمال من بينهم من يقومون بإدارة الجمعية التعاونية .

ب) الأرباح ٢٠ ٪ من الأرباح لزيادة رأس المال ، والـ ٨٠ ٪ الباقية من الأرباح يخصص جزء منها للإعانات العمالية والجزء الآخر يوزع على العمال بنسبة العمل الذى قدمه كل عامل منهم .

جـ) العمال غير الأعضاء يصبحون أعضاء فى الجمعية بعد انقضاء سنة من العمل فى الجمعية .

د) رأس المال غير قابل للتصرف .

مولد التعاون ونهضته فى ظروف خاصة :

نشأت المؤسسات التعاونية فى معظم البلاد التى مدنيتها غربية كتفاعلات أو ردود فعل تلقائية لم يعنها أحد ، وهى على درجات متفاوتة من التعقيد ، ولم يكن هذا هو الحال فى كل مكان حتى فى أوربا ، ويرجع الفضل إلى إقدام أحد عمد منطقة الرين وهو «ريفيزن» وإلى ابتكاره ومثابرته فى إيجاد أكثر أنواع الجمعيات التعاونية انتشاراً وهى الجمعية التعاونية الريفية للتوفير والاقتصاد . وكان ذلك بعد تجارب وأخطاء متكررة . وقد ابتدأت الحركة التعاونية فى **بلغاريا** بواسطة الدوائر الحكومية ، وكانت فى بعض نواحيها قائمة على التقليد الإسلامى فى إنشاء صوامع الغلال . وفى **فنلنده** نمت واحدة من أقوى الحركات التعاونية وأصلحها وكانت البداية على يد جماعة من أصحاب الفكر . وفى بلاد **المجر** أتت الحركة التعاونية من قبل طبقة

أبوية من النبلاء . ومع ذلك فمن المهم أن يسجل أن الحركة فى هذه البلاد لم تتخذ شكلها النهائى ، ولم تبلغ حيويتها إلا عندما نبذ الحافز الأول لها مظاهر الأبوية ، وأخذ يعبر عن القوى المتأصلة فى وعى الناس .

أما فى الجهات الأخرى بآسيا وأفريقيا ، وبالأخص البلاد التابعة أو التى كانت **تابعة لمجموعة الأمم البريطانية** فإن المصالح الحكومية المتخصصة هى التى اضطلعت بعبء تنشيط الحركة التعاونية وقيادتها إلى أن أصبحت قادرة على الوقوف على قدميها .

وفى **جمايكا** بدأت الحركة التعاونية حقيقة على يد «لجنة النهوض بالتعاون» وذلك منذ عام ١٩٤٣ وكان باللجنة منذ البداية ممثلون عن الجمعيات الخيرية واتحادات الحرف وكلية القديس جورج والمصالح الحكومية المعنية بالتعاون . ثم مثلت فيها الاتحادات التعاونية التى أسست فيما بعد ومنها مصالح حكومية منشأة خاصة بالتعاون .

وفى بعض بلاد آسيا مثل (**بورما وسيريلنكا والهند**) كان الاتجاه مماثلا لذلك إذ إن المجالس القومية للتعاون ولبعضها فروع فى الولايات والجهات الأخرى) وهى التى يعهد إليها بأعداد وتنفيذ برامج التعليم التعاونية ، تبدو ذات تكوين مشترك به ممثلون للوزارات المختصة والجامعات والهيئات التعاونية .

الدور الذى يؤديه التشريع :

ترجع القوانين الأساسية للمؤسسة التعاونية إلى تاريخ أقدم من تاريخ التشريع الخاص بالتعاون ، وأن هناك ما يدل على أن عمال «وولتش وتشاتام» ببريطانيا كانوا يملكون فى عام ١٧٦٠ م مطحنا للغلال خاصا بهم ، ولم يكن إلا بعد مضى ٩٢ سنة بعد ذلك ؛ أى فى عام ١٨٥٢ م أن نص القانون على حق الملكية الجماعية ، وأعطى الجمعيات التعاونية الشخصية المعنوية الاعتبارية ، (ولم تكن تلك الشخصية للجمعيات التعاونية الموجودة فعلا فى عام ١٨٣٠ م وعددها يربو على الثلاثمائة) .

وفى عام ١٨٦٧ م أعطيت الجمعيات التعاونية وضعا قانونيا فى ألمانيا ، وبعد ذلك فى فرنسا ، بينما لم يصدر قانون للتعاون فى النمسا إلا عام ١٨٧٣ م ، وقد ظلت الجمعيات التعاونية فى عدد من البلاد كبلجيكا والمجر وهولندا وسويسرا خاضعة للقانون التجارى ، أما النرويج والدنمارك فليس بهما تشريع خاص بالتعاون إلا النظم الداخلية للتعاونيات أنفسها ، ومنها منظمات الاعتماد على النفس . ومع ذلك ففى البلاد غير الأوربية حيث التعاون حديث العهد ، فإن الحركة التعاونية لم يبدأ نموها إلا منذ صدور تشريع وافٍ يحدد الخطوط العامة ويترك التفاصيل للنظم الداخلية للتعاونيات بحيث يتحقق مستوي مناسب ومقبول من الثبات لتلك التشريعات ، ويتم تعديله نوعا ما من خلال نظمه الداخلية بحيث يواكب العصر وتطورات حركة البشر أنفسهم ، والذى قام التعاون منهم وبينهم ولأجلهم .